

فهم ماكلوهان " المباحث المغيبة في مناخ الوسائط وامتداد الحواس "

Understanding McLuhan's "Missing Detectives in a Climate of Media and Extended Senses"

د. هشام عبادة

¹ جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، abada.hicham@univ-biskra.dz

(<https://orcid.org/0009-0009-2514-8830> )

تاريخ القبول: 2025/05/28

تاريخ الاستلام: 2025/04/27

ملخص:

يتناول المقال تسليط الضوء على المباحث المغيبة في أفكار ماكلوهان انطلاقاً من الوسائط ومناخ الحواس، وتعقيدات الجسد البشري، باعتبارها قضايا ذات قيمة مركزية في الحتمية التقنية، بدءاً بإينيس المنذر الأول بعواقب ومآلات التكنولوجيا. وبالنظر إلى التراث الكبير المتوفر حول ماكلوهان، أمكن القول أنّ منظر مدرسة تورنتو، تعرض لإساءة فهم، وتحريف مقاصد وفرط تأويل منذ القرية الكونية إلى قوانين الميديا، فالأفكار الأساسية التي تمكننا من توسعة النظر في إشكالات التكنولوجيا وارتباطها بالإنسان، لم تطرح بعد، وهذا حسب المتخصصين في دراسة تصوراتها، فما يتوفر لدينا لا يشكل إلا الشيء القليل مما لم يُقل. يحاول المقال إبراز أهم المشكلات التي تقف حائلاً أمام فهم ماكلوهان خاصة في الدرس الإعلامي-الاتصالي العربي.

الكلمات المفتاحية: التقنية؛ ماكلوهان؛ مناخ الحواس؛ الامتداد؛ التدليك؛ رباعية الميديا.

Abstract:

The article seeks to shed light on the hidden investigations in McLuhan's thought, starting with media, the climate of the senses, and the complexities of the human body as issues of central value in the technological determinism, beginning with Ennis, the first alarmist of the consequences of technology. The Toronto School theorist has been misunderstood, misrepresented, and over-interpreted from the Cosmic Village to the Laws of Media. The basic ideas that enable us to expand our consideration of the issues of technology and its relation to the human being have not yet been put forward, according to specialists who study his conceptualizations, and what we have available constitutes only a small part of what has not been said. This article attempts to highlight the most important issues that stand in the way of understanding McLuhan, especially in Arab media and communication studies.

Keywords: Technology; McLuhan; Climate of the senses; Extension; Massage; Media quadrilateral.

يقول ماكلوهان: "إن محتوى أورشالة أي وسيط معين له نفس أهمية الكتابة على غلاف القنبلة الذرية."

من كتاب "الوسيلة هي الرسالة"

تعد فرضية "الوسيلة هي الرسالة"، ماركة مسجلة باسم المنظر الكندي ألبرت مارشال ماكلوهان، فهي النقطة التي أعادت رسم علاقة البشر بوسائل الإعلام وبمحتواها، مع إضافات ابستمولوجية قدمتها وجهات نظر مفكر تورنتو، مفادها أن التوقف عند حدود الدلالات بين طرفي العلاقة سيكون مآله عدم إدراك عواقب التقنية وحتميتها، التي ألقت بظلالها على الاستخدام والإدراك والحياة الاجتماعية والثقافية، بدءاً بكندا، أين حاول هارولد إينيس إقامة حفريات التنقيب في تحيز الاتصال، وانحرافه لصالح القوى الكبرى المهيمنة آنذاك (بريطانيا-الولايات المتحدة)، خاصة مع ظهور التلفزيون الذي بعث أفقا جديدا لبدء النظر في تجربة الحواس ومناخ (البارد والساخن) في وسائل الإعلام.

كانت كل انشغالات ماكلوهان منصبة على تعقيدات الجسد البشري، والعلاقة المذهلة التي تجمعها بالوسائط التي شكلت امتداده القهري، أكثر مما كانت تميل إلى تغليب سطوة الوسيلة على المضمون، الذي يعد في نظره أمراً ثانوياً ضمن أطروحته، فمقولة الوسيط هو المحتوى، تعبير استعاري، لا يبرر تقليص النظرية في هذه المساحة الضيقة التي ساءلها ماكلوهان في معرض حديثه عن قوة الوسيلة التي اعتبرها رسالة في حد ذاتها. فالمتأمل في الكتابات التي تدور حول أفكار ماكلوهان، يجد أنها لا تعدو أن تكون عملية إعادة تدوير لنفس النقاشات منذ عقود مضت.

هناك مباحث كثيرة غيبتها طريقة الكتابة وأساليب التفكير فيما كتبه ماكلوهان أو قاله، أو استعاره من أستاذه هارولد إينيس، ويمكن التلميح هنا إلى جهود ابنه إيريك، وبعض تلامذته الذين أقصوا تماماً من الاهتمام، عكس ما حدث مع دوسوسير في تأسيسه للسانيات القرن العشرين. من ناحية أخرى يمكن القول إن الكتابة حول ماكلوهان في المنطقة العربية مازالت فقيرة عدا بعض المحاولات الجادة التي قدمها للقارئ العربي الباحث نصر الدين لعياضي تشريحاً وتحليلاً ومساءلة معمقة. لقد طرح ماكلوهان الكثير من المفاهيم الملتبسة، والاستفهامات المعقدة حول العلاقة بين البشر والآلة، وهي تظهر فقط على شاكلة فرضيات أو تصورات، لكنها في واقع الأمر فلسفة حواس وحتمية سيرنطيقية وسلوكية، وهي أكبر من أن تختزل في نظرية واحدة.

إن الدرس العربي في الإعلام والاتصال، يحتاج الآن إلى لحظة استيعاب هامة لكل ما تناوله ماكلوهان، خاصة ونحن أمام أسئلة جديدة طرحها الميديا الرقمية، بكل مفززاتها وعناصرها (مساهمة جمهور، أحاسيس، تأثير، تطبيقات، جسد، متخيل، تفاعل، وغيرها من التشعبات التي يرسمها النص الفائق، وما يرتبط به من إشكاليات تقنية بالدرجة الأولى. فالاستثمار في مقولات ماكلوهان يمكن أن يغير قليلاً من طرق البحث وبيعه مثلاً على التجريب من جديد، لأن المنظور الحتمي للتقنية كان ميلاده ضمن أفاق التجريبية والبرمجة العصبية للجسد البشري العجيب. إن هذا المقال يسلط الضوء على نقاط مهمة مهمة في المعجم الكبير الذي تتمتع به حتمية القرن الواحد العشرين. وعلى سبيل المثال نطرح مفهومين بارزين في أفكار ماكلوهان يحتاجان إلى حظوة بحثية ومساءلة تفكيكية، هما: رباعية الميديا أو قوانين الميديا والوسيلة هي التديك. وهما من المسائل التي أولاهما عناية فائقة في نظرياته ومؤلفاته. لكنها مهمة لدى القارئ العربي الذي ما زال يعتمد على تفسير الماء بالماء (الوسيلة هي الرسالة) وفقط. من هذا المنطلق نطرح الإشكالية التالية: كيف نفهم المقاصد المغيبة في فكر ماكلوهان انطلاقاً من تجاوز براديغم التسطيح الذي يغلب على القراءة له، وما هي أبرز المسائل التي غيها النقاش حوله في المنطقة العربية؟

للتوسع في هذه الإشكالية يمكن طرح التساؤلات التالية:

■ كيف نفهم ماكلوهان انطلاقاً من هارولد إينيس؟

- أية تعقيدات ترافق تشريح مناخ الوسائط (البارد ضد الساخن)؟
- كيف ندرس امتداد الوسيلة لحواس الجسد؟
- ما المقصود بالوسيلة هي التدليك؟
- لماذا قوانين الميديا رباعية مهمة في تفسير عمل الوسائط؟
- ما المآخذ التي تحسب على القراءة لماكلوهان في الدرس الإعلامي- الاتصالي العربي؟

أهداف الدراسة

- تهدف الدراسة إلى تباحث النقاط الأساسية التي رافقت الحديث عن الحتمية التقنية لماكلوهان، كما تحاول الوقوف على أهم التصورات المتعلقة بوجهات نظر هارولد إينيس حولها.
- التعرف على المرجعية الفكرية لمارshall ماكلوهان وأهم مرتكزاته المعرفية.
- تحليل العلاقة المتعدية للوسيلة هي الرسالة إلى الوسيلة هي التدليك كمفهوم موازي يدخل ضمن الحتمية
- إيضاح التعقيد الذي يرافق النقاش حول وسائل الإعلام ضمن جدلية مناخية الوسيلة (باردة/ساخنة).
- تسليط الضوء على المتخيل التكنولوجي وتكنولوجيا المتخيل خاصة في راهن الميديا الجديدة اليوم
- إبراز القيمة المعرفية التي تخص متاب قوانين الميديا والتعرف على الرباعيات الشهيرة لماكلوهان.
- إثارة النقاش حول المسائل الخلافية في منظور الحتمية التقنية.
- استجلاء أوجه التحريف والقصور والضعف في دراسة أفكار ماكلوهان خاصة في المنطقة العربية.

II. الإطار النظري للدراسة:

أولاً: هارولد إينيس من أجل فهم أوسع لمارshall ماكلوهان

1. بداية نظرية الحتمية التكنولوجية

إن تشكيل احتكار المعرفة المرتبط بالزمن والفضاء، بوصفهما سلطة مطلقة، يمثل تهديدا كبيرا. تكمن خصوصية الوضعية الكندية في أن هذا البلد يوجد بين إمبراطوريتين، في ملتقى الاتجاهين المذكورين في الاتصال. لذا وجب على كندا بذل جهد تكنولوجي متعارض لمواجهة آثار الحتمية التكنولوجية الحديثة، التي تقلص الحقل الممكن للإجابات والنقاشات من قبل الجمهور، مع وجوب إعادة الاعتبار للتقاليد الشفاهية، وإيقاظ الذاكرة وخلق آليات المشاركة الديمقراطية باعتبارها عناصر تشكل قاعدة لنوع آخر من الاتصال. ووسائل الإعلام حسب هارولد إينيس Harold Innis أهمها الأدوات المفعله لدحض الهيمنة الأمريكية-البريطانية (ماتلار، 2005، ص193)

من أجل ديمومة الإمبراطوريات يجب إحداث التوازن بين الوسيط الذي يروم التحكم في الفضاء، والوسيط الذي يسعى إلى إعادة إنتاجه عبر التحكم في الزمن مستثمرا في الخصائص التالية: (الخفة، الثقل، الديمومة، الشدة الزوال). وإن كان ماكلوهان استوحى أطروحاته من تبعات هذه الثنائية على النظام المركزي، وبسط النفوذ، واحتكار المعرفة، والسرعة في نقل الأوامر والمعلومات، فإن قوة مقارنته تكمن في فكرة التحول الذي يطرأ على الوسيلة وما تحدثه من تغيير في البيئة. في الوقت الذي كانت البحوث الإعلامية عاكفة على دراسة قدرتها على نقل الرسائل، وتحليل مضمون ما تنقله. (لعياضي، 2021، ص16)

إن شكل الوسيلة يضمن نفسه في الرسالة، ويصنع علاقة تكافلية عن طريقها تؤثر الوسيلة في الطريقة التي يُنظر بها إلى الرسالة. هذا التصور شكل إحدى لبنات مشروع مانهاتن للاتصالات في الولايات المتحدة الأمريكية، مما أدى إلى صعود الصحف إلى الواجهة ممثلة مسؤولية ضمان ماذا يقرأ الشعب الأمريكي؟، وهكذا استمر الوضع بهيمنة الصحافة إلى اللحظة الحاسمة التي قدمت التلفزيون كراعي رسمي للذهول. (Gillmor, 2004, p4-9)

كانت تصورات إينيس تتجه إلى إيجاد رد فعل حول الهيمنة على التقنية التي كانت تشكل خطراً على كندا من طرف الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة، فبؤاد شبه حرب باردة كانت تلوح في الأفق كمشروع غربي ألقى بانعكاساته على طبيعة الحياة الثقافية والاجتماعية في كندا. تفتن الكثير من الدراسين الكنديين إلى ضرورة دراسة المعطى التقني الذي تتسابق فيه القوى الكبرى، لأنه لا محالة سيشكل حصاراً تكنولوجياً يبدأ بوسائل الإعلام وينتهي بتقلص رمزي لمكانة كندا، وهو المعطى الأهم الذي دفع بمدرسة تورنتو إلى بعث أسئلة ونقاشات موسعة لم تكن لها علاقة بحتمية وسائل الإعلام على الجمهور بقدر ما كان هدفها الأساسي إيجاد حلول لمأزق التطور وأثره على المجتمع الكندي.

من المفارقات العجيبة المغيبة عن النقاش في مسألة الحتمية التكنولوجية هي تلك اللحظة الحاسمة التي سمحت بوجود وضع جيوبوليتيكي وثقافي مزمن في كندا، لأنه من الغريب جداً، إرجاع تأسيس هذه النظرية على أنقاض سعي إينيس وبعض من الباحثين الكنديين إلى إيجاد معادل من النفوذ أمام المد التقني خاصة في مجال المعلومات وثورة التلفزيون، وتطور الاتصالات وأنظمة التشفير والبيث والهندسة والمعلومات في أمريكا. وهذه أسباب كافية تدعو إلى تسليط الضوء على هذه المرحلة المهمة التي سبقت ماكلوهان بعشر سنوات كانت كافية لتمدد منظومة الاتصال والتكنولوجيات، وهي مرحلة لا تلقى الكثير من الاهتمام خاصة في البيئة العربية لعدة أسباب منها ضعف الانفتاح على التراث الانجلوساكسوني في أبحاث لاتصال، عدا ما توفر من فعل ترجمي شحيح جداً.

2. هارولد إينيس ومسألة التحيز في الاتصال

استحدث إينيس مفهوماً للتحيز في محاولة منه لتفسير التأثير التقني في ثقافة وسائل الإعلام، وربما التعرف على الميول العديدة التي تنتج عن خصائص تقنية معينة لوسائل الإعلام، ويعد تحيز تجربة الحواس كما وسعها ماكلوهان إحدى النماذج التي تحيل على فهم التجربة ومعايشة العالم في صور بصرية بشكل أو بآخر. إن كلمة تحيز لا تعني حتمية لكنها تتضمن ميلاً اتجاه أنواع معينة من تجارب الوساطة وطرقها، والمقارنة التي يعقدها إيليس "Ellis" بين البيث التلفزيوني والفيلم السينمائي تقدم مثلاً واضحاً لكيفية عمل التحيز (غير المقصود) للوسيلة الإعلامية بطرق دقيقة ولكنها منهجية متعددة (ماكويل، 2019، ص188)

لم يؤيد هارولد إينيس نتائج ماندر فيما يخص طبيعة الموت للإعلام الإلكتروني، ولكنه اعتقد أن التركيز على وسيلة اتصالية ما يشير إلى التحيز في التطور الثقافي لحضارة ما، إما بالتأكيد على الفراغ والمؤسسة السياسية، أو على الزمن والمؤسسة الدينية. لذلك فرق إينيس بين الإعلام المحدد بالوقت عن الإعلام المحدد بالفراغ. إن المجتمعات التي تستعمل الصخور كوسيلة لنقل المعرفة، محدودة في سرعة نقلها وردود فعلها، أما تلك التي تتمتع بالأقمار الصناعية، فقد تحررت من المحددات الجغرافية والزمن. الأولى تنتهي بالتحيز الديني، أما الأخرى تنتهي بتحيز علماني سياسي (شوسميث، 2017، ص116)

لم يخف ماكلوهان 1980-1911 فضل زميله في جامعة تورنتو Toronto (هارولد إينيس) عليه، حيث كتب في مؤلفه المعنون بكوكب غوتنبرغ La Galaxie Gutenberg: "إن هارولد إينيس هو أول شخص عالج سيرورة التغيير الكامن ضمننا في الأشكال التكنولوجية ذاتها. إن كتابي لا يعد سوى إحالة في أسفل الصفحات مقارنة بأعماله". وفقاً لكتاب هارولد إينيس (الإمبراطورية والاتصالات) Empire and Communications يحيل موضوع الكتاب إلى الهيمنة

البريطانية والأمريكية التي تخضع لها كندا، من خلال تشريح تهديد النظام التكنولوجي للاتصال القادر على إصابة قلب الحياة الثقافية في كندا والتعجيل في أزمته. وهي الاتجاهات التي يطلع بها الاتصال بجوانبه التكنولوجية التي تحدد الأشكال التي يتخذها التنظيم الاجتماعي. تعود نظرية الحتمية التكنولوجية إلى إرهاسات لا علاقة لها بوسائل الإعلام. (ماتلار، 2005، ص 193)

يتحكم احتكار المعرفة الذي تصوغه التكنولوجيا المتوحشة حسب إينيس في توزيع السلطة بين المجموعات الاجتماعية، إن السلطة هي مسألة مراقبة الفضاء والزمن، وتقوم أنظمة الاتصال بصياغة التنظيم الاجتماعي من خلال هيكلتها للعلاقات الميكانيكية والزمنية. وقد ميز إينيس بين شكلين من وسائل الإعلام والاتصال المؤديان إلى شكلين من الإمبراطوريات الأول مرتبط بالفضاء الواصل **Space Binding** ممثلاً بالمطبعة والاتصال الإلكتروني الذي يؤدي إلى التوسع والتحكم في إقليم ما. والشكل الثاني يرتبط بالزمن الواصل **Time Binding** الذي تحمله الثقافة الشفاهية والمخطوطة. فالشكل الأول يستهدف المركزية والثاني يستهدف نقيضها. (ماتلار، 2005، ص 193)

3. الوضع الاستيمولوجي لفكر ماكلوهان

هناك العديد من المصادر التي تضافرت في تكوين شخصية ماكلوهان الفكرية، أولها هو دراسته للنقد الأدبي الحديث الذي أتاح له الاطلاع على أهمية الإدراك في تشكيل ثقافة المرء، حيث اعتقد أن الحس المرئي ينتهي إلى نمط تفكير منطقي وخطي، بينما يرتبط الإحساس السمعي بعالم حدسي أكثر شمولية، وقادته دراسته الأدبية إلى الاهتمام بالشاعر James Joyce فتأثر به وهذا ما تجلى في باكورة أعماله سنة 1951 "العروس الميكانيكية، فلكلور الرجل الصناعي" (لعياضي، 2021، ص 15)

كثيراً ما استخدم ماكلوهان نفسه مصطلح فسيفساء لوصف أسلوبه. فسيفساء، قبل كل شيء، فسيفساء من الاقتباسات التي بسبب تكرارها تصبح مملة. اقتباسات طويلة من علماء الاجتماع مثل شبنغلر، والاقتصاديين مثل روستو، ومؤرخي الفن مثل: روسكين وبانونفسكي ولفلين وغومبريتش، والعلماء مثل أينشتاين وهايزنبرغ، والفلاسفة من أفلاطون إلى بيكون وديكارت وبركلي وكانط وبرتراند راسل وبوبر، ولكن قبل كل شيء اقتباسات أدبية. من المفارقات إذن أن يجد الكتاب الذي يبشر بنهاية مجرة غوتنبرغ الكثير من إلهامه في الكتاب الذين روجوا لتلك المجرة. ينتهي معظم هؤلاء الكتاب إلى شريعة الأدب الإنجليزي، حيث يحتل شكسبير مكان الصدارة إلى جانب تشوسر وميلتون وبن جونسون ووردزورث وبيتس، وسينج، وإليوت، وباوند وفوكنر وحتى جيمس جويس، الذي كان ماكلوهان معجباً به إعجاباً شديداً. وبدا له أن كتابه "صحوة الفنلنديين" على وجه الخصوص أحد الأعمال الأربعة الرئيسية التي تجسدت فيها أسطورة تحول المجتمع بسبب غوتنبرغ. (Villanueva, 2018, p77-84)

هناك بُعد آخر يمكن التعرف عليه في أسلوب مارشال ماكلوهان، وهو بعيد كل البعد عن الرصيد التعبيري للنثر العلمي، رغم أنه قد يكون قريباً من بعض التعبيرات الفلسفية مثل تلك الموجودة في كتاب لودفيغ فيتغنشتاين "تراكتاتوس". مثل: الميل نحو الأمثال التي يُظهرها في كتابه "مجرة غوتنبرغ". وقد بذل أتباعه قصارى جهدهم لدحض هذه الحقيقة الأسلوبية التي يمكن التدرج بها كعيب آخر يبرز افتقار المؤلف إلى الدقة، بما في ذلك الدقة الفكرية.

إن الحاجة إلى دفاع مماثل في مواجهة الهجمات المحتملة لها ما يبررها، كما يتضح من العبارة اللادعة التي ذهب بها أحد النقاد غير الراضين عن نفسه، وهو كريستوفر ريكس، إلى تشويه سمعة كتابات ماكلوهان بالقول: "أنها كتلة ضبابية تنبثق منها استعارات فاشلة". وللدفاع عن هذه النزعة الأسلوبية المثيرة للجدل، استعان إريك ماكلوهان بفرانسيس بيكون كمرجع في الكتابة الأمثولية. ووفقاً له، فالقول المأثور شكل من أشكال الخط الشعري يتطلب مستوى عالٍ من المشاركة من جانب القارئ، أي أنه شكل بارد، حسب المصطلحات الماكلوهانية. وبعيداً عن كونها تمثل عيباً فكرياً وضعفاً

في مواجهة الصرامة المنهجية التي يجب أن تكون مطلوبة من كل عالم، في حالة مؤلف كتاب "من أجل فهم الميديا"، فقد كانت نية متمعمة لإعطاء القراء فرصة المشاركة في الحوار، والانخراط في عملية الاكتشاف (Villanueva, 2018, p86)

تمثل كتب وايت حول التكنولوجيا الوسيطية والتغير الاجتماعي سنة 1962، وولتر بنجامين حول "العمل الفني عصر إعادة الإنتاج الميكانيكي" 1936، ومانفرد "التقنيات والحضارة" 1934 وستيفرد لويس "الآلة تحكم زمام الأمور" 1948، ويناد هام لويس "الزمن والإنسان الغربي" وأطروحات جورج فريدمان، وجورج مورستي. (Lucien, 1988, p55) مرجعيات مهمة ساعدت في بلورة نظريات ماكلوهان، بل إن إشكاليات أعمق تتعلق بتحليل هيمنة الآلة، ووسطوتها تحسب لستيفرد لويس من حيث قوة التوسع، إن الفكر التقني الذي ميز كتابات الباحث الكندي، كان موضوع نقاش لدى الكثير من الدارسين وليس حكرا عليه فقط.

تناول نصر الدين لعياضي مسألة مهمة في تشريحه لفكر ماكلوهان عندما أشار إلى أن أفكاره طالها التشويه أو العبث الأكاديمي إن صح التعبير، حيث تعد التأويلات المفتوحة التي رافقت القراءة لماكلوهان مشكلة في حد ذاتها لم تخدم فهمنا لنظرياته بقدر ما زادت تعقيدا وغموضا واختلافا إبستمولوجيا ويتضح ذلك مثلا من خلال إلصاق بعض النعوت بماكلوهان مثل: "نبي الميديا"، و"نبي الإنترنت"، و"الفيلسوف" و"منظر الميديا" و"الفنان" و"القديس". تدل هذه الأوصاف التي تعج بها الكتابات الأكاديمية عن سوء فهم لما هو عليه الباحث الكندي. (لعياضي، 2021، ص13)، ويمكن إضافة نقطة أخرى تتعلق بالمقاصد التي نتباحثها اليوم في الدرس الإعلامي العربي، تحت سؤال ملح مفاده: هل نتباحث فعلا الأفكار التي طرحها ماكلوهان أم أننا نناقش مسائل خلافية تمخضت عن القراءة له؟ لأن الإجابة بالسلب على هذا السؤال مؤسفة من عدة جوانب يمكن حصرها فيما يلي:

- تغيب في الكتابات العربية التوضيحات الكافية لإسهامات ماكلوهان من خلال مدرسة تورنتو للاتصال التي أسسها بكندا، والأکید أن هذه المدرسة تعج بالأفكار التي تكمل نظرياته.
- إن العدة التكنولوجية في نظر ماكلوهان هي عدة اجتماعية بالأساس فلا يمكن بناء فلسفة تقنية بمعزل عن هيكل فلسفة اجتماعية للتكنولوجيا
- تشكل الفكر الماكلوهاني من خلال الاهتمام الكبير الذي أولاه ب: هارولد إينيس، والذي نجده غائبا في تفكيك علاقة البشر بالتكنولوجيا عند البحث في كتابات ماكلوهان. وعليه بكم سنيين لإينيس لو منحناه القدر الكافي من الاهتمام بأعماله وأفكاره؟ وكيف ستصبح منظورات التقنية في كتاباتنا بعد إحصاء مساهماته؟
- يحضر ماكلوهان في تدريس علوم الإعلام والاتصال بشكل شحيح جدا، وتقني فقط، إذ يتم عزل إبستمولوجيا التقنية وهي أساس تصورات، كما تم بتر فرضيات الزمن والفضاء في درس الحتمية للطلاب بالجامعات.
- تبقى مسائل كثيرة عالقة ومهمة في أفكار ماكلوهان إضافة إلى أعمال غير مترجمة في الإعلام العربي، سيما لدى معاصريه أو تلامذته ونقاده، ما يؤكد فرضية أن المائل بين أيدينا من تصورات لا يشكل سوى قدر قليل من المعرفة بالتكنولوجيا وفكر الحتميات (بالجمع).

في انتقاله من التفكير في الوسيط إلى البيئة الإعلامية، توصل ماكلوهان إلى فكرة مهمة مفادها أن كل ميديا لا تولد مكتملة، بل تسعى في بداياتها إلى استعمال محتويات الميديا التي سبقتها وحتى لغتها، وهذا ينطبق تماما على وسائل الإعلام. لقد لخص أول معد لشبكة البرامج في التلفزيون الفرنسي، 1946 هذه الفكرة في الجملة التالية: إن التلفزيون يتوجه بإمكانيات الإذاعة إلى جمهور ينتظر منه أن يقدم له ما يعادل السينما وتدرجيا تستقل الميديا الجديدة عما سبقها من وسائط الاتصال بعد أن تفرض خصوصيتها وبيئتها الخاصة (لعياضي، 2021، ص17)

والإنترنت وسّعت أيضا من هذا الامتداد على نحو سريع جدا، تجاوز القرية الكونية الماكلوهانية. لكن التكنولوجيا بالمفهوم السلبي حاصرت حياة الفرد عن طريق تحويله إلى فرد انغماسي استهلاكي مبرمج فقط لزيادة التعرض والاستخدام تحت وطأة الإكراه الذي تمارسه التطورات التكنولوجية. وفي التطور الذي تشهده خدمات وسائل الإعلام يصير الراديو صحيفة مسموعة، ويصبح التلفزيون راديو مرئي، وتكون السينما سيناريو وصوت وصورة. أي كل الوسائل الجماهيرية، أما الإنترنت، فهي كل الوسائل مجتمعة، هي السابق واللاحق الجماهيري.

يمثل كتاب مجرة غوتنبيرغ، تصورا جلب إلى ماكلوهان الكثير من النقد رغم كبر حجم المعجبين به، وأفكاره كانت في نظر الكثيرين بعيدة عن الطابع العلمي، وتتسم بالضبابية لعدم تركيزها على تماسك ونقاط واضحة يشرحها تارة ثم تختفي لتعود تارة أخرى. يبرر ذلك من طرف بوتسمان الذي كان يعرفه جيدا بأن الكندي رجل شفهي يعتمد ويبرع أكثر في شرح أفكاره حديثا لا كتابة. هذا ما جعل الكثير من المقاصد التي أراد الكتابة عنها مهمة وغير متفق عليها حتى لدى من عاصروه. خاصة وأن ماكلوهان كان بشرح فرضياته خارج الالتزام بإطار معين (Postman, 1992, p71)

يرى ماكلوهان أن وسائل الإعلام ساعدت في انكماش الكرة الأرضية وتقلصها في الزمان والمكان ما أدى إلى ازدياد وعي الإنسان بمسؤوليته، فهذه الحالة الجديدة أفرزت "عصر القلق" لأن الثورة التكنولوجية تجبر الفرد على الالتزام والمشاركة بعمق، فنحن نحاول أن نقوم بعمل اليوم لكن بأدوات الأمس وبمفاهيم الأمس. ويرى ريتشارد بلاك Richard black أن القرية الكونية التي زعم ماكلوهان وجودها لم يعد لها وجود حقيقي في المجتمع المعاصر، لأن التطور التقني الذي لم يعاصر ماكلوهان أدى إلى تشظي هذه القرية وتفتتها، فالعالم الآن حسب بلاك أشبه ببنية ضخمة تضم عشرات الشقق ومئات الأشخاص المنعزلين رغم اجتماعهم، أي بدلا من حدوث الاندماج، حصل التنافر والانعزال فصار توجه مجتمعات اليوم فردانيا (كافي، 2015، ص 131)

توالت أوصاف أخرى دالة على مفهوم القرية الكونية، ففي نظر البعض ممن مريدي تكنولوجيا ماكلوهان فالعالم أضحى شارعا، ثم اختزل أكثر ليتحول إلى غرفة، ثم أمكن تقليصه في رقاقة أو شريحة هاتف موصولة بالإنترنت، إلى عدسة مجهرية توضع تحت الجلد. لقد حولت تكنولوجيا اليوم العالم إلى نموذج لا يمكن تحديد حجمه في شكل معين، لم تكن قرية ماكلوهان إلا انعكاسا لاستخدام اجتماعي ومرحلة من التقنية الثقافية للمجتمعات التي تضخمت معرفتها بفعل الحاجة، فتحوّلت إلى سيرورة من الاكتشافات طالت أجهزة مثل: الهاتف، والتلفاز والراديو والسينما.

ثانيا: فهم مناخ الوسائط (جدلية الساخن والبارد)

في العام 1964 جادل ماكلوهان في كتابه "فهم وسائل الإعلام" بأن التكنولوجيا ليست قناة محايدة لكنها رسالة في حد ذاتها، تؤثر في العمليات الذهنية وفي لا وعي الأفراد، وهذا من خلال أطروحة مناخ الحواس (الباردة والساخنة). من المثير للاهتمام أنه يمكن النظر إلى التجارب التي تجري عبر الإنترنت باعتبارها "ساخنة" لأن ما يعرض على الشاشة من مادة غريبة ومذهلة على نحو متزايد لا يترك شيئا للخيال، وتعد كذلك باردة أيضا، حيث أن جاذبيتها الضخمة تأتي من التجربة التفاعلية المبنية على المشاركة التي تقدمها. إن وسط التقنيات الرقمية تحديدا، أي الشاشة نفسها وما يكمن وراءها قد يوجه عمليات تفكيرنا في اتجاه غير مسبق. إن الفرق المادي بين الشاشة والكتاب، وتوافر النص التشعبي Hypertext والفرصة لأداء مهام متعددة والانخراط في أنظمة لتدريب العقل لها جميعها تأثير محتمل في عملياتنا الذهنية. (غرينفيلد، 2017، ص 242)

تعمل الوسائط الساخنة على الإبعاد أما الوسائط الباردة فتعمل على التقريب من خلال قلة المساهمة لدى الجمهور في الساخنة، وكثرتها في الوسائط الباردة. وتعد مسألة الوضوح نقطة مهمة وهي تتعلق في كونها عامل اختلاف بين التصنيفين، وتعني قدرة الوسيلة على توفير المعلومات بشكل جلي غير مبهم لا يدفع الجمهور إلى بذل جهد أو مساهمة كبيرة في فك شفراتها. من هذا المنطلق يمكن اعتبار الصورة عالية الوضوح لأن معناها مباشر ونهائي. في حين أن الحديث

بالهاتف غير نهائي، لأنه يترك القوس مفتوحاً للتأويلات، والشك، وعدم اكتمال القصد (رشتي، 1978، ص391). يقصد بالوسائل الباردة تلك التي تتطلب من المستقبل جهداً إيجابياً في المشاركة والمعيشة والاندماج فيها، أما الوسائل الساخنة فهي تلك الوسائل الجاهزة المحددة نهائياً، فلا تحتاج من المشاهد أو المستمع إلى جهد يبذل أو مشاركة أو معيشة، ويميل ماكلوهان من خلال تصوراتهم إلى جعلها تأخذ صفة اختبارات وليس نظريات. (كافي، 2015، ص131)

يوجد مبدأ أساسي يفرق بين الوسائط الساخنة مثل الإذاعة أو السينما عن الوسائط الباردة كالهاتف والتلفزة. يعد الوسيط ساخناً عندما يمدد إحدى الحواس ويعطيها "تعريفاً رفيعاً" ففي اللغة التقنية للتلفزة، يحمل "التعريف الرفيع" كمية كبيرة من المعطيات. على المستوى البصري تتوفر الصورة على تعريف رفيع، أما الرسم المتحرك، فإن له تعريفاً ضعيفاً، لأنه لا يقدم سوى قدر كبير من المعلومات. كما أن الهاتف وسيط بارد أو ضعيف التعريف، لأن الأذن لا تستقبل سوى كمية ضعيفة من المعلومات (مبيج، 2011، ص36). في حالة كان متحدث على الهاتف يستغرق مكالمته مقدرة بالساعات مثلاً، فإن التعريف الرفيع حسب ماكلوهان المحدد بالكمية لا يدل على أن مدة المكالمته قد تغيرت الكمية المتعرض لها، لأن خاصية الوسيط البارد تتجاوز التقدير الكمي، لتؤكد على أن الكمية مهما كان حجمها فوسيطها يجعلها تبقى باردة ومرتبطة بعدم نشاط الحاسة وتفعيلها.

إن وسيط بارد كالتلفزة أكثر تكثيفاً وثقلاً من وسيط ساخن كالسينما، لكن من المعروف أن نصف دقيقة في التلفزة تساوي ثلاث دقائق في المسرح، ويمكن قول الشيء نفسه بخصوص المخطوط مقارنة مع المطبوع، فالمخطوط البارد كان يتحمل شيئاً مكثفاً من الخطاب في شكل أمثال واستعارات. أما الوسيط الساخن الممثل في المطبوع، فإنه ينشر التعبير في اتجاه تبسيط وتهجئة الدلالات، لأنه يسرع ويفكك المخطوط ويحوّله إلى أجزاء أكثر بساطة. يترك الوسيط البارد سواء تعلق الأمر بالكلام أو بالمخطوط أو بالتلفزة، لمشاركة القارئ أو المستمع مجالاً أوسع مما يتركه الوسيط الساخن. فإذا كان للوسيط تعريفاً رفيعاً، فإن المشاركة ستكون ضعيفة، وإذا كانت للوسيط قوة ضعيفة، فإن المشاركة ستكون كبيرة (مبيج، 2011، ص36-37)

هناك إمكانية للتساؤل عن إمكانية تبريد الميديا، وهذا موضوع لم يشغل عليه ماكلوهان وابنه إريك أو حتى إينيس، بعض الميديا ساخنة طبيعياً (الإذاعة)، بينما أخرى باردة طبيعياً (التلفاز). وهذا يفيد أن الإذاعة لديها فرصة أقل للتحويل عن طريق التسخين، وأنه في بعض الحالات تتحول إلى أشكال أخرى عن طريق التبريد. ما يشكل معنى لدى ماكلوهان هو التسخين أكثر من أي شيء آخر، والمحرك الأساسي للتغيير عنده هو التسخين الشديد للميديا فالدynamية الحرارية للميديا عند ماكلوهان تأخذ اتجاهها معاكساً، الحرارة في زيادة دائماً، فيصير الوسيط عملياً مشحوناً بكثافة أكبر وبكم كبير من المعلومات وعدد وفير جداً من الأشكال كي تديرها وتنظمها حواسنا (ريس، 2018، ص169). على مستوى الساخن والبارد لا تهم تصنيفات الوسائل لدى ماكلوهان. لأن القراءات توقفت عند الانهيار بهذا التصنيف، إنما من وجهة نظر ماكلوهان هي جسر للمروار إلى تحليل مسألة معقدة تتعلق بالتجارب والأحاسيس التي يتم نقلها وتسخينها أو تبريدها من قبل الوسيلة. من خلال مهاجمته للسطرية والطبيعة التجريدية للغة المطبوعة، ومن خلال الاهتمام أكثر بالقدرة على التخيل التي تتعد أساس تصوره في التفريق بين الوسائل الباردة والساخنة.

ثالثاً: الجسد وتمثيل امتداد الوسيط لترسيمة الحواس والأعضاء

لقد طوّر الإنسان اليوم امتدادات لكل ما كان يفعله بجسده تقريباً، فتطور الأسلحة يبدأ بالأسنان والقبضة وينتهي بالقبلة الذرية. الملابس والمنازل هي امتدادات لآليات التحكم في درجة الحرارة البيولوجية للإنسان، الأثاث محل القرفصاء والجلوس على الأرض. الأدوات الكهربائية والنظارات والتلفاز والهواتف والكتب التي تحمل الصوت عبر الزمان والمكان هي أمثلة على الامتدادات المادية. المال هو وسيلة لتمديد العمل وتخزينه. تقوم شبكات النقل لدينا الآن بما اعتدنا القيام به بأقدامنا وظهورنا. في الواقع، يمكن التعامل مع كل الأشياء المادية التي صنعها الإنسان على أنها امتداد لما كان

يقوم به الإنسان بجسده أو بجزء متخصص من جسده. إن ما يرتبط بوسائل الإعلام هو ملاحظات حول عمل وتأثيرات المصنوعات البشرية على الإنسان والمجتمع، لأن "المصنوع البشري" ليس مجرد أداة تعمل على شيء ما، بل هو امتداد لجسمنا الذي يتأثر بإضافة أعضاء اصطناعية (MacLuhan, 1977, p94)

آمن ماكلوهان بأن الوسيط **Medium** هو امتداد للإنسان ولم يحصره في وسائل الإعلام التي تحظى بالإجماع مثل: الصحيفة والمجلة، والمذياع، وجهاز التلفزيون، بل رآه في كل وسائل النقل والمواد والتجهيزات التي تمد حواس الإنسان وتوسع نشاطها، ووصفها بأنها امتداد للإنسان لكونها تتوسل بأحد مؤهلاتنا البدنية أو الحسية (لعياضي، 2021، ص17). كلما امتلك عدد أكبر من حواسنا في عملية استقاء المعنى، كلما صارت وسائل الإعلام جذابة على نحو متزايد أو متجانسة مقارنة بوسائل الإعلام الساخنة وذات الاتجاه الواحد. كانت التجربة أكثر إتاحة للمشاركة. فوفقاً لهذا الرأي تتسم تجربة معايشة العالم من خلال قراءة النص المطبوع بالعزلة، ولا تتيح المشاركة. (مشجعة السلوك العقلاني الفردي)، أما مشاهدة التلفزيون فتتيح المشاركة، على الرغم من أنها ليست إحاطية بدرجة كبيرة كما أنها تفضي إلى سلوكيات أقل عقلانية وتديراً (ماكويل، 2019 ص186)

بالنسبة للفيلسوف الكندي، فإن تعريف الوسيط واسع النطاق، ويشمل جميع التقنيات التي تولد امتدادات للجسم البشري. فالعجلة هي امتداد للقدم، والثوب امتداد للجلد، والأبجدية الصوتية امتداد للعين، حيث يأتي البصر على رأس التسلسل الهرمي للحواس. ويميز بين الوسائط الميكانيكية مثل الطباعة التي ولدت التماثل الاجتماعي والتجزئة الشخصية على حد سواء، ففي الوسائط الإلكترونية مثل الكمبيوتر والتلفزيون. من وجهة نظر ماكلوهان، يصبح المشاهد هو الشاشة، بينما في السينما هو مجرد كاميرا. هنا، الوسيط هنا هو الرسالة، لأنه ينطوي على طبيعة تشاركية للتجربة. عندما نقرأ هذه السطور اليوم، نفكر على الفور فيما كان سيقوله ماكلوهان عن هاتفنا الذكي، الذي نقضي حياتنا كلها ونحن نمسح على زجاجه. فقد وصف العلاقة بين الإنسان والآلة بأنها علاقة تكافلية في جوهرها (Dallen, 2025)

تفترض الآثار الجانبية للهاتف أو الراديو وجود نظام معقد من التكنولوجيا الكهربائية والخدمات المساندة، والتي يعتبر اعتمادها بمثابة أرضية جديدة تحول مجتمع المستخدمين بأكمله. وبالمثل، فإن نظام المصنعين والطرق والخدمات التي هي بمثابة آثار جانبية للسيارة الآلية تغير (وجه ورائحة) أي مجتمع مستخدم بأكمله (MacLuhan, 1977, p87). تهدف القوانين الخاصة بالوسائط إلى توفير وسيلة جاهزة لتحديد الخصائص والتأثيرات التي تمارسها علينا تقنياتنا ووسائطنا، والمصنوعات اليدوية. فهي لا تركز على أي مفهوم أو نظرية، ولكنها تجريبية، وتشكل وسيلة عملية لإدراك عمل وتأثيرات الأدوات والخدمات البشرية العادية. وهي تنطبق على جميع المصنوعات اليدوية البشرية، سواء كانت أجهزة أو برمجيات (MacLuhan, 1977, p98)

إن تنبؤات ماكلوهان لم تكن مفهومة قبل ظهور الميديا الجديدة، لكنها اتخذت وضعاً أكثر وضوحاً اليوم وأكثر استيعاباً لما كانت عليه في بيئة الاتصال التناظرية. حتى كتاباته كانت ذات طابع استعاري في التعريف بالوسائط ووضع التعريفات الرفيعة لها، ومن استنتاجاته النظر إلى المصباح كاكشاف ساحر بأنه وسيط -حامل- والكهرباء هي ميتا وسيط **Meta Medium** (لعياضي، 2021، ص13)

والحال ينطبق على القطار والأرجل كأعضاء حركية. ففي ترسيمة أفق الامتداد الذي يطال الوسائل في ارتباطها بأعضاء الإنسان لا حواسه فقط، تكون العلاقة الوجودية بين الوسيط وما يحيل عليه من عضو أو حاسة مستهدفة قاعدة خارجة عن الحصر والتحديد داخل مسألة الحواس، لأن مشروع ماكلوهان أوسع من النظر إلى الحاسة وهذا من مأخذ فهمه التي توقفت عند حدود الكنايات التي منحها الكندي ولم تتجاوزها للنظر في مدى اتساع خطاطته التجريبية التي اقترحت فهم الوسيلة انطلاقاً من معطى فيزيولوجي لا ميكانيكي.

لا يمكن اختزال الامتداد الذي خصه ماكلوهان للوسائل في أذن وعين ومتخيل لدى المتلقي، لأن الحتمية ليست بالمفهوم المجازي الذي يحيل على الإكراه في الاستخدام، على العكس تماما لطالما كانت مسألة اختيار الجمهور لوسيلة تمثله وتعكس تطلعاته رد فعل قوي على التأثيرات القوية وعلى ما يتبعها من نظريات تفسر الفرد دائما في خانة المفعول به قهرا من طرف الميديا التي لم تكن تسمح بوجود درجة أو امتياز من السيادة لدى المتلقي.

رابعا: الحتمية التقنية (دال ومدلول)

الحتمية تعني أن الإنسان يصبح غير مخير في التكيف مع التكنولوجيا واستخدامها، حيث تجبره التغيرات السريعة والمتلاحقة على الانخراط في التقنيات الحديثة لتجنب العزلة الاجتماعية أو المهنية، وفي هذا السياق تعد التكنولوجيا قوة تفرض على الأفراد والمجتمعات بحيث يصبح من الصعب أو حتى من المستحيل العيش بمعزل عنها دون أن يكون هناك نوع من الانفصال عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية الحديثة (الزهيري، 2024، ص154)

يتعلق اصطلاح التكنوبوليا Technopolis بسيطرة التكنولوجيا على الثقافة والحضارة، ويتمثل في خضوع سائر أشكال الحياة الثقافية السائدة لسيادة التقنية والتكنولوجيا. أي بنظام يبرر نفسه ذاتيا وينتج نفسه ذاتيا، وفيه تسود التكنولوجيا على المؤسسات والحياة الاجتماعية. لا يرتبط الأمر فقط بدولة ثقافية، فحسب نيل بوتسمان، التكنوبوليا هي تأليه التكنولوجيا، بمعنى أن الثقافة هنا لكي توجد فهي تحتاج إلى الحصول على نوع من الترخيص من لدن التكنولوجيا. تجد الثقافة تحققها نفسه في التكنولوجيا، وتتلقى الأوامر منها، ويضيف بوتسمان: "نحن نعيش في عالم تم فيه استبدال فكرة الرفاهية نفسها بنتائج الفحص بالأشعة. نشعر بأننا بخير عندما يقول لنا الجهاز التكنولوجي أننا على ما يرام! (Postman, p74, 1992)

إحدى الطرائق الشائعة للحديث عن علاقة البشر بالأجهزة التقنية، هي اختراع نظرية الحتمية التقنية Technological Determinism. تؤكد هذه النظرية الجانب التقني في علاقة المجتمع بالتقنية، ففي أشد أشكالها تطرفا، ترى الحتمية التقنية أن أنواع التقنية هي أكبر قوة فردية تحرك التاريخ البشري، وأنه لا توجد آلية تقريبا بين نوع التقنية الذي تمتلكها ثقافة ما والخصائص الجوهرية لهذه الثقافة. تمنح التقنية نفسها قوة سببية مستقلة للعمل. لهذا السبب فإن كثيرا من المناقشات المبكرة عن الثقافة الإلكترونية مثلا توحى بوجود شيء متأصل في التقنية يؤدي حتما إلى نتائج وخيمة (شريرة وبائسة) أو نتائج إيجابية. إذ يقول ماكلوهان في هذا الشأن: "نحن نشكل أدواتنا ثم تشكلنا أدواتنا بعد ذلك". اعترف ماكلوهان أن كل أداة تواصل (من قلم الرصاص إلى التلفزيون) تحوي في بنيتها بعض الاستخدامات المحتملة التي يمكن أن تشكل أفعالنا بطرائق لم نقصدها أو حتى نتخيلها أصلا وكما قال فريديريك كيتر: "وسائل الإعلام تحدد وضعنا" (ريد، 2016، ص34-35).

يتجلى في منظور الحتمية التقنية تطبيق عملي للإيمان بأولوية دور البنية التحتية في تحديد ماهية التطور الاجتماعي. يضم هذا التيار منظرين أساسيين انشغلوا بتأثير الآلات التكنولوجية، خاصة في عصر المعلوماتية والإعلام الرقمي. مثل أندريه لوروا-غوهان وأبحاثه حول الذاكرة الجمعية من النقل الشفاهي إلى الإلكتروني (1964). وباك غودي وعمله على تأثير مختلف قنوات الاتصال على أشكال التحليل والإدراك (1977) ثم أندريه ليوتارد وأبحاثه حول وضع المعرفة وأنماط التفكير في ضوء رقمنة العلامات، والتحالف الجديد بين الصوت والصورة والنص. وفيليكس غاتاري الذي عمل على تأثير الآلات التكنولوجية للإعلام والاتصال، بحيث لا يقتصر تأثيرها على ذاكرته وذكائه فقط، بل على مستوى شعوره ولا وعيه (1992). بيار ليفي وعمله على "المرونة الرقمية والأشكال الجديدة للكتابة" (1994)، وبرنار ستيفلر وأبحاثه حول التقنية والذاكرة (1994) وأخيرا ريجيس دوبري وعمله على مشروع "علم الإعلام العام" (1989-1991) (الحويك، 2021، ص12)

إن وسائل الإعلام في نظر ماكلوهان تشكل المجتمعات أكثر مما يشكلها المضمون أو المعلومات، فمقابل إيمان كارل ماركس بالاحتمية الاقتصادية، وإيمان فرويد بسيطرة اللاشعور على الفرد (رشتي، 1978، ص 372). يؤمن ماكلوهان بأن علاقة الفرد بالوسيلة أقوى من علاقته بما تقوله أو تنشره، لطالما اجتمعت آراء الناس في المقاهي والساحات لمناقشة الميديا. إن الذي يشكل هوس الأفراد بما يجري حولهم كان كثير الالتصاق بالصحيفة والراديو والتلفزيون، كونها هي الحدث الفعلي وهي القضية وهي المحتوى، وليس ما تثيره أو تؤثر به. لم يكن ماكلوهان ذا اتجاه إقصائي لتأثير المحتوى، لكن مقترحاته مالت نحو معنى: أن المحتوى لا يأخذ شرعية قوة التأثير إلا إذا احتضنته وسيلة أكثر قوة.

وهناك موقف آخر اتخذته الناس ضد الاحتمية التكنولوجية من منطلق أن التكنولوجيا ليست عاملاً سببياً، بل هي أداة يمكن استخدامها للمساعدة في تطور المجتمع. وفي هذا السياق فسر المؤرخ الأمريكي (وايت)، "إن الجهاز الجديد لا يفعل أكثر من فتح الباب. مع هذا لا يجبر المرء على الدخول من خلاله". وهذا يعني أن التكنولوجيا تنتج التقدم إذا سمحنا لها بذلك. ويقول أكاديمي أمريكي آخر، إيثيل دي سولا بول، "إن التكنولوجيا تشكل بنية المعركة ولكن ليس كل نتائجها" مما يعني أن التكنولوجيا تشكل عاملاً من عوامل التغيير، ولكن هناك عوامل أخرى أيضاً يمكن أن تدفع إلى التقدم (الزهيري، 2024، ص 155)

في نهاية المطاف، أجرى الأستاذ والتلميذ - إذا كان لنا أن ننظر إلى العلاقة بين أستاذاي تورنتو بهذه الطريقة - بحثاً في الاحتميات التي تعززها التكنولوجيا كما هي مطبقة على التقدم في مجال الاتصالات. وبسخاء مبالغ فيه، ذكر ماكلوهان نفسه، في مقدمته لإعادة طبع كتاب إينيس بعد وفاته "تحيز الاتصالات" (الذي نُشر في الأصل عام 1951)، أنه لا يمانع في اعتبار كتاب (مجرة غوتنبرغ) كحاشية لملاحظات إينيس حول العواقب النفسية والاجتماعية للكتابة أولاً ثم للطباعة، ومع ذلك هناك اختلافات جوهرية بين نهجهما. يركز إينيس بشكل أساسي على تأثير تكنولوجيا الاتصال على التنظيم الاجتماعي والثقافي، بينما يعطي ماكلوهان الأولوية لدراسة تأثير الوسيلة نفسها على الإدراك والفكر (Villanueva, p69-75، 2018)

كانت مدرسة تورنتو الدافع الرئيس نحو ظهور فرع جديد من نظرية الوسيلة **Medium Theory** وتمثل الوسيلة، في أي أداة لحمل معنى مع بعض الخصائص المميزة فيما تعلق بالتكنولوجيا أو بالشكل أو طريقة الاستخدام أو وسائل التفسير أو التعريف الاجتماعي، غير أن شكلاً دقيقاً من الاحتمية يعمل هنا وينسب فيه إلى وسيلة ما تحيز معين تجاه أنواع أخرى من المحتوى والاستخدامات والتأثيرات، وقد أثبت هذا المنهج أنه أكثر جدوى من الاحتمية الصعبة في تحديد التأثيرات الأكثر دقة للطريقة التي تستخدم بها وسائل الإعلام، كما في الاتصال السياسي (ماكويل، 2019، ص 187)

يفرض المحيط التكنولوجي الجديد التركيز على البعد الآلي **Machinique** في إنتاج الذاتية. يعتقد المحلل النفسي فيليكس غاتاري **Félix Guattari** أن الآلات التكنولوجية للإعلام والاتصال بدء بالمعلوماتية والروبوتيك مروراً بوسائل الإعلام تدخل في قلب ذاتية الإنسان لا على مستوى ذاكرته وذكائه فقط، بل على مستوى شعوره ومؤثراته ولا وعيه أيضاً (Guattari, 1992). إن التقنية تدخل ضمن مشروع ما بعد الحداثة عندما تضع الفرد في وضع الخضوع والقبول بالوضع السائد، بمعنى التسليم القهري بالأوضاع القائمة المفروضة عليه، وتمثل وسائل الإعلام وآلات الاتصال إعادة إضفاء الطابع الفردي عليها لاستخدامها ضمن مطالب التجريب الاجتماعي وتشكيل أوجه التعميم الشامل للذاتية أو تمديد الفردانية وإدخالها منظومة التبادلات (أفراد، آلات، مجموعات).

حسب روبرت وينر **Robert Winner** في جدلية العلاقة بين الإنسان والآلة، ترتكز (الهوية-الرسالة) على أنه يمكن (نظرياً) نقل هوية شخص ما عن طريق التلغراف. نحن أمام نسخة "صلبة" من الإبدال الإعلامي الذي يحدد الفرد بالمعلومة، فالهوية لا تتحدد بالمادة وليست مادة ما بهم، بل الحفاظ على تصميمها وتنظيمها، أي المعلومة هو ما بهم في

نهاية الأمر. فبعد أن عرفت السيرانية نموها كافيًا، تعرضت تدريجياً للهميش في وقت ما من لدن المعلوماتية ووسطوة عالم الرسائل الذي فجرته وسائل الإعلام تحت سلطة الانبهار المرافق لتشكّلها واختراعها (شنيدر ف.، 2019، ص 99-100). إستعداد ريجيس دوبري حدس ماكلوهان حول تنفيذ المسلمة المتوارثة المتعلقة "بالإنسان التيبوغرافي" والتي مفادها أولوية المحتوى على الشكل، وبالتأكيد على أن وسيلة الاتصال ذاتها تحدد طبيعة ما يتم تداوله من رسائل وتقود إلى نوع جديد من الحضارة، وقد رد دوبري على من يرونه ممجداً للحتمية التكنولوجية معتبراً نفسه مجرد باحث فقط عن المحددات الموضوعية لأجهزة الفكر".

خامساً: من الوسيلة هي الرسالة إلى الوسيلة هي التدليك

1. الوسيلة هي الرسالة (العلاقة المتعدية)

شكلت مقولة "الوسيلة هي الرسالة" إعادة للنظر في الأبعاد التقنية للاتصال الاجتماعي الذي لم يكن ذا حظوة بحثية لدى الوظيفيين أمثال هارولد لاسويل، وقد أيقظت فكرته أيضاً تجارب السلوكيين وإشكالية المثبرات والاستجابات، لكن بعيداً عن فرضيات التعلم، فمسلسلة امتدادات الحواس لامست العمل الميكانيكي للجسد وأضافت تأكيداً امبريقياً آخر يتعلق بالجوانب الحسية وأفق الإدراك.

عندما ألف ماكلوهان كتاب الوسيلة هي الرسالة، مع المصمم كوينتين فيوري عام 1967 وقع خطأً في تصميم الغلاف فبدل الرسالة message وضع لفظ التدليك massage ولكن ماكلوهان على الأغلب تعمد تمرير المفهومين في علاقة ثنائية، قاصداً إثارة إشكالية التعدي من التأثير على المدركات إلى الإحساس الجسدي، ليخلص إلى معنى أن الوسيلة لا تعمل مع عقولنا فقط بل مع أحاسيسنا أيضاً، فهي تخلق أنماطاً حسية جديدة.

يحيل مفهوم "الوسيلة هي الرسالة" على أن ملاحظة التغيير في ظروفنا المجتمعية أو الثقافية الأرضية يشير إلى وجود (رسالة جديدة، أي تأثيرات وسيط جديد). ومن خلال هذا الإنذار المبكر، يمكننا الشروع في توصيف وتحديد الوسيلة الجديدة قبل أن تصبح واضحة للجميع - وهي عملية تستغرق في الغالب سنوات أو حتى عقوداً. وإذا اكتشفنا أن الوسيلة الجديدة تجلب معها تأثيرات قد تكون ضارة بمجتمعنا أو ثقافتنا، فلدينا الفرصة للتأثير على تطور الابتكار الجديد قبل أن تصبح التأثيرات منتشرة (MacLuh, 1977, p41)

ويصف ماكلوهان "محتوى الوسيط بأنه "قطعة لحم غضة يحملها اللص لتشتيت انتباه رقيب العقل". وهذا يعني أن الناس يميلون إلى التركيز على ما هو واضح، وهو المحتوى، لتزويدنا بمعلومات قيّمة، ولكن في هذه العملية، نغفل إلى حد كبير عن التغييرات الهيكلية في شؤوننا التي يتم إدخالها بمهارة، أو على مدى فترات طويلة من الزمن. فمع تغير قيم المجتمع ومعايير وطرق القيام بالأشياء بسبب التكنولوجيا، ندرك حينها الآثار الاجتماعية المترتبة على الوسيلة (MacLuh, 1977, 34) إن الميديا من منظور ماكلوهان تتضمن غالباً رسالة مضَعَفَة (لعياضي، 2021، ص 18) أي متعددة فداخل أي محتوى نتطلع إلى علاقة تناصية مع محتوى ثان، فأصل بعض الأفلام روايات، ونصوص موسيقية، وإشهاريات، وداخل الفيلم يوجد تعالق خارجي يمكن من رسائل أخرى.

إذا أخذنا الفيلم كمثال، فقد جادل ماكلوهان بأن الطريقة التي تتلاعب بها هذه الوسيلة بمفاهيم السرعة والزمن حولت، عالم التسلسل والصلات إلى عالم التكوين والبنية الإبداعية. لذلك فإن رسالة الوسيط السينمائي هي هذا الانتقال من الروابط الخطية إلى التكوينات الإبداعية البصرية. وبالمثل، يعتقد ماكلوهان أن رسالة نشرة الأخبار عن جريمة بشعة قد لا تتعلق بالقصة الإخبارية الفردية نفسها - المحتوى - بقدر ما تتعلق بالتغيير في الموقف العام تجاه الجريمة الذي تنتجه نشرة الأخبار من خلال حقيقة أن مثل هذه الجرائم يتم إحضارها في الواقع إلى المنزل لمشاهدتها على العشاء

يرى الأستاذ نصر الدين لعياضي، أن هناك الكثير من المسائل المهمة المتعلقة بإمالة اللثام عن مقاصد ماكلوهان من خلال مؤلفاته أو تصوراته بشكل عام ويمكن ذكر بعضها في ما يلي:

- لم تكن غاية ماكلوهان التحقيب التاريخي لوسائل الاتصال، بل السعي إلى كشف التحول الذي أحدثته هذه الوسائل في نماذج الإدراك البشري وتأثيراتها الاجتماعية والثقافية.
- الكثير من تصورات ماكلوهان كانت أرضية لدى جاك دريدا استلهم منها بعض أفكاره خاصة ما تعلق بما بعد الحداثة، مثل: التمرکز الصوتي، التمرکز العقلي، التتابع الخطي، والحس المتزامن.
- لا توفر المراجع العربية في الدرس الإعلامي العربي سيما في تدريس نظريات الاتصال على معرفة ماكلوهان بالشكل الكافي ربما بسبب ضعف توثيق أفكاره.
- تتراوح أصناف الكتابة حول ماكلوهان بين ما ينسب إلى ماكلوهان بلا مصدر، وبين ما كتبه البعض عنه، وبين ما يفكر فيه بعض المؤلفون حول ما قاله.
- تكاد تؤكد الكثير من الآراء أن أفكار ماكلوهان تعرضت لتأويل خاطئ أو ربما غير سليم في كثير من المقاصد.

يعتبر ماكلوهان: "إن التلفزيون وسيلة باردة، ترفض الشخصيات والموضوعات الساخنة، أكثر من الصحافة التي تعتبر وسيلة ساخنة، فلو كان التلفزيون موجودا على نطاق واسع خلال حكم هتلر، لساعد ذلك على اختفائه بسرعة (رشتي، 1978، ص 393)، لذلك كانت الإذاعة وسيلة ساخنة لأنها عملت دائما على تسخين الدماء في إفريقيا والهند والصين. وحتى في وقت الدعاية في ألمانيا، كان الراديو المدفع الحقيقي لهتلر والوسيلة الأجدر بتحرك الجسد الميت للألمانيين الذين يتصفون أصلا بأنهم باردون.

لا حظ رايس Rice وآخرون، أن المفهوم القائل أنّ قناة الاتصال قد تكون بوصفها متغيرا في عملية الاتصال مساوية في الأهمية للمصدر والرسالة والمتلقي وردة الفعل، ربما قوبل بالتجاهل. وبالرجوع إلى مدرسة تورنتو نجد أنهم يقولون: "إن المرء ليس بحاجة إلى أن يكون مؤمنا بالحتمية التقنية لكي يوافق على أن الوسيلة ربما تكون متغيرا رئيسا في عملية الاتصال"

قدم ماكلوهان ثلاثة حدود مغرية، استمد قسطا مهما منها من هارولد إينيس.

1- فكرة أن الواقعة الأساسية في الاتصال ليست الخطابات وإنما الوسائط ذاتها، أي الوسائط في ماديتها حسب تعبير ريجيس دوبري.

2- ارتكاز هذه الفكرة على التاريخ الثقافي للمجتمعات

3- ارتباط تطور الوسائط بالمصالح وتدخل القوى الاجتماعية.

إن طروحات ماكلوهان لم يكن المقصود بها تشريح حالة القوة التكنولوجية الراهنة تلك الفترة أو شرح أوجه تمدد القوى التقنية وسيطرتها على حياة الإنسان، بقدر ما اتجهت نظرياته التي صاغها حول التقنية إلى تحليل المشكلات التي تتعلق بمآلات الإنسان الاجتماعية والثقافية، انطلاقا من مما تم التنبؤ به من التحول المتوقع والسريع الذي سيحدث، بعبارة أخرى كان ماكلوهان يكتب عن واقع لا يملك معطيات تخصه أو عن عقود لاحقة تجسدت فعلا.

تجد وصفات ماكلوهان التحذيرية تحققا اليوم على شاكلة خيبة لجملة من التشاؤميات التي حصلت بالفعل في العرض الواسع لماذا تفعل التكنولوجيا بحواسنا. فمن خلال إضفاء طابع الإباحية على التكنولوجيا، والجنس المدعوم بالآلات، والرغبات اللحمية التي لا جسد لها، والخضوع التام لسطوة التطبيقات على حياتنا، نجد أن الفلسفات التكنولوجية التي أعقبت منذرات القرية الكونية واستحالة الخروج عن مأزق أن التكنولوجيا التي تجمعنا هي المصير الملموس والفعلي لتحولنا الجذري المحتوم والمحفز قبل عقود طويلة تحت ما عبر عنه ماكلوهان نفسه بالانصهار الإيروتيني الحتمي بين

الإنسان والآلة. حيث سبق وأن تسائل ماكلوهان منذ 1951 عن أحد أكثر جوانب عالمنا الغريب المتعلقة بالانصهار الاستهامي للجسد في التكنولوجيا. وقد أفضت تساؤلاته إلى مبادرة مساءلة تعقيدات الحواس ومن ثمة الخروج بمحددات منطقية لكيفيات حدوث هذا الانصهار (McLuhan, 1967, p42-45)

أمعن ماكلوهان في التركيز على كيفية معاشتنا للعالم وليس على ماهية ما نعيشه فيه، أي كيف نعيشه من خلال تمثله لنا بواسطة هي وسائل الإعلام، وليس بمحتوى تعرضه لنا، فكل وسيلة إعلامية جديدة تتجاوز حدود التجربة أو المعيشة التي وصلت إليها وسائل الإعلام الأسبق. وقد أصاب ماكلوهان في رؤيته عمل وسائل إعلام مختلفة معا، في حين كان تنبؤه بالقرية الكونية على نحو أقل إقناعا من حيث قوة ديمومة التصور.

اكتشف ماكلوهان سنة 1967 أن ضغط وسائل الإعلام الجماهيرية يدفع نحو اللاعقلانية، وأنه يصبح من الملح الاعتدال في استخدامها، لقد قضى مفكر مدرسة توريننتو قبل ذلك عقودا في الاندهاش إزاء الحريات المتعددة التي كانت تجلبها تلك القرية الكوكبية والمتاحة فوراً للجميع دون كلل. لكن القرى على نقيض المدن، لقد كانت محكومة على الدوام بالامتثال والعزلة والمراقبة الدنيئة والسأم والشائعات المتكررة دوماً حول نفس العائلات بعينها (ديبور، 2000، ص 116)

2. الوسيلة هي التدليك

إن وسائل الإعلام في نظر ماكلوهان لا تنقل فقط معلومات ولكنها تقول لنا ما هو نوع العالم الموجود، وهذا لا يجعل حواسنا تثار وتتمتع فقط، ولكنها تعدل نسبة استخدامنا للحواس وتغير في الواقع شخصيتنا، ولم يكن ماكلوهان أول من قال: "أن الأشياء التي نكتب عليها كلماتنا لها أهمية أكبر من الكلمات نفسها" ولكن الطريقة التي قدم لنا بمقتضاها هذه الفكرة هي التي تقتبس باستمرار. فهو يقول: "أن الوسيلة الإعلامية تسبب تدليكا للحواس". إن الرسالة الأساسية في التلفزيون هي التلفزيون نفسه، فلا يهم عند ماكلوهان إذا عرض التلفزيون عشرين ساعة يوميا لأفلام رعاة البقر التي تنطوي على العنف والقسوة والقتل، أو برامج ثقافية راقية. فالمضمون غير هام، ولكن التأثير العميق للتلفزيون هو الطريقة التي يعدل بمقتضاها الناس الأساليب التي يستخدمون بها حواسهم ويعبر عن هذا بقوله الوسيلة هي التدليك. (The Medium Is the Massage (رشتي، 1978، ص 384)

إن مضمون الوسيلة هو التدليك هو معنى أن مضمون أي وسيلة هو دائما وسيلة أخرى، فمضمون الكتابة هو الكلام. والكلمة المكتوبة هي مضمون المطبوع، والمطبوع هو مضمون التلغراف. ففي نموذج الضوء الكهربائي، نجد أنه سواء استخدم في عملية جراحية في المخ أو في إضاءة مباراة لكرة السلة، فهذا ليس بمهم. نستطيع أن نقول أن أوجه النشاط تلك هي بشكل ما "مضمون" للضوء الكهربائي، حيث أنها لا يمكن أن تتواجد بدونه. هذه الحقيقة التي تقول أن الوسيلة هي التدليك. إن مضمون أي وسيلة يلهينا عن الوسيلة نفسها، فإذا لم يستخدم الضوء الكهربائي لإضاءة وإبراز سلعة في متجر فلن يلاحظه أحد كوسيلة، في هذا الحالة فإن الضوء ليس إلا المضمون الذي هو في الواقع وسيلة أخرى، فقط لم تتم ملاحظته (رشتي، 1978، ص 387)

في نظر ماكلوهان يفسر التدليك أيضا بالجمهور، فكل وسيلة جمهور يفوق تعلقه بالوسيلة إلى الاهتمام بمضمونها، فليست كل علاقة ذاتية تنشأ بين الفرد والشاشة هي تحقق لفكرة الوسيلة هي الرسالة. إنما المضمون هو تدليك لتلفزيوني داخل إطار سيكولوجي، فكك ماكلوهان ببراعة العلاقة النفسية بين الناس والتلفزيون، لذلك تجاوز الوظيفة إلى الحديث على نوع من العاطفة التي توفرها وسائل الإعلام لجمهورها في إطار المتعة والارتباط الوثيق بالجهاز، وهذا تأكيد لفرضية لفكرته التي مفادها أن حواسنا شبكة عصبية تضم المعلومات كما تفعل وسائل الإعلام.

يعمل الإشهار التلفزيوني على تقوية فرضية الوسيلة هي التدليك، الذي يتم بواسطة التحفيز الإغرائي والقدرة السحرية للمعلنين، من خلال ضخ الاستثارات العصبية المتعلقة بالسلعة أو المنتج أو الخدمة، وتوجيهها للزبون، بطريقة لا تجعله يرى التقنية التي سمحت برؤية السلعة بشكل فاتن، بل برؤية المنتج كمضمون نهائي مقنع لأنه تم تمريره عبر التلفزيون فقط، هذا يفسر إذن عدم إمكانية إعادة ضخ إشهار ناجح في التلفزيون من خلال الراديو.

سادسا: قوانين الميديا (الرباعية المهمة)

عندما كتب مارشال ماركولوهان: "الوسيلة هي الرسالة"، كان يقصد التأكيد على الآثار المترتبة على أن أي تقنية جديدة أو (وسيط) تتجاوز السياق المحدد لاستخدامها (أو محتوى رسالتها). إن استيراد أي وسيط يتجاوز حتمًا محتوياته إلى تأثيراته على العمل الذي يندرج فيه. يمكن تلخيص هذه الرسالة، وفقًا لماركولوهان وابنه إريك، في أربعة قوانين لوسائل الإعلام. وكما قال ماركولوهان شخصيًا: "لطالما كانت المجتمعات تتشكل بطبيعة الوسائط التي يتواصل بها الإنسان أكثر من محتوى الاتصال". (Euchner, 2016, p11)

✓ كل تكنولوجيا جديدة، أو "امتداد للإنسان تكثف أو تعزز شيئًا ما في العالم،

✓ تجعل شيئًا آخر عفا عليه الزمن،

✓ تستعيد بعض سمات الماضي،

✓ في أقصى حالاتها، تنقلب إلى صورة كاريكاتورية عن نفسها

يستدعي إريك ماركولوهان الرباعية قائلا: "إنها أكبر اكتشاف فكري فريد ليس فقط في عصرنا بل وعلى مدى القرنين الأخيرين على الأقل" فهو لم يتراجع عن هذه القوانين أو المبادئ مع اعترافه، لأنه لم يتراجع قيد أنملة عن إيمانه بأهمية قوانينها، وأن نظريات أبيه بلغت أوجها الجماهيري خلال ستينيات القرن 19، مع صحة جديدة خلال طفرة الإنترنت مطلع التسعينات، وهي ما تمسك به من أجل تلخيص جهود أبيه. إن وجهة نظر إريك بشأن الرباعيات تطبق فقط على الابتكارات البشرية (ريس، 2018، ص 169)

إن العبارة الشهيرة (الوسيط هي الرسالة) تستحق مكانا ليس فقط في التلفاز، بل وضمن قائمة قصيرة عن المبادئ الأساسية للميتافيزيقيا ويقول إريك: "إن جميع الكيانات هي "ميديا" وسائط رباعية. مثلما فعل ماركولوهان الأب. لقد أعاد آل ماركولوهان تحديد كيانات الوسائط الإعلامية، فمصطلح الميديا لا حجم له في تصورهم أكبر من أن يحصر في وسائط. لأنه وثيق الصلة ليس فقط بالتكنولوجيات الورقية والكهربائية، بل وأيضا بالأشجار والزواحف والغازات والحجارة، نظرا لأن كلا منها هو وسيط ينقل الطاقات ويبث المعلومات للآخرين. يقول إريك: "كل التكنولوجيات لها قوانين رباعية لا خامس لها، وقد قضى أبي حياته يبحث عن خامس ولم يجده، لقد استقر رأيه على أربعة فقط"، وهي في المرجع الأصلي له مع أبيه: (التعزيز، التخلي، الاسترجاع، العكس) (ريس، 2018، ص 170)

طرح ماركولوهان وابنه إريك في كتاب "قوانين الميديا" منظور رباعية ماركولوهان بوصفها خطاطة لتحليل أي وسيط اتصالي، تهدف إلى إبراز كفاءات تأثير الوسائل على المجتمعات وتحدد الأوجه الكبرى لعملها من خلال أربعة قوانين مهمة (makluhan, 1992, p127-130)

● القانون الأول: التعزيز، كل تكنولوجيا تمدد أو تخضع من قدرة عضو ما أو ملكة من ملكات المستخدم، وكل تقنية في نظر ماركولوهان تقوي شيئًا ما كان يفعله الإنسان من قبل. الهاتف يعزز الكلام كمجز فردي، والسيارة تعزز المشي والتنقل، الكتاب يعزز الذاكرة، والحاسوب يعزز القدرة على الآلة الراقنة، والقدرة على الكتابة، والتخزين، والنشر. تعمل التقنية أيضا على تطوير عمل الإنسان وتحويله من شكله الضعيف والبطيء إلى حالة من السرعة والقوة والدقة.

● **القانون الثاني: التخلي**، يتعلق هذا القانون بالقدرة التي بإمكان الوسيلة الجديدة إدخالها على الوسيلة القديمة، باعتبار أنها تفوقها كفاءة وتطورا وفعالية، فعندما ظهر التلفزيون أزاح الراديو وحوله إلى حالة شبه مهمشة. ليس المقصود بها الإلغاء أو الاستبعاد لكن الانهيار بالتلفزيون الذي أثر على استخدام الراديو. من جهة أخرى عملت الهواتف الذكية على جعل آلات التصوير الكلاسيكية محدودة الاستخدام، بل تكاد تنسى اليوم لما تعيشه من تضائل الاستخدام. والمغزى من هذا القانون أن كل وسيلة تحمل معها بوادر إلحاق الضرر بالوسيلة التي سبقتها. إما تهميشا أو إقصاء أو إزاحة من خارطة الاستخدام. فالتخلي عن الشيء ليس هو نهايته، تدخل الميديا المهجورة مجال بيع الأدوات المستعملة ذات الطراز القديم.

● **القانون الثالث: الاستعادة (الاسترجاع)**: فالوسائل تعمل على استرجاع الممارسات الزائلة من الاستخدام الاجتماعي للأفراد، في لحظة تاريخية ما. مثلا يستعيد التلفزيون لم الشمل لدى الأسر، ويبعث على فتح مجال الحوار، والراديو يعيد إحياء السرد القصصي والمحكي الشعبي. وفي عصر الإنترنت أعادت الوسائط الاجتماعية تشييد الفعل الحواري من خلال منتديات الدردشة، والمحادثات الرقمية، كما كان عليه الأمر في الفضاءات العمومية التي تقلص فيها النقاش.

● **القانون الرابع: الانقلاب**، ويتعلق بالحالة المتضخمة من الاستخدام الذي تصل فيه الوسيلة إلى ذروة الهيمنة والتأثير. يعتبر ماكلوهان أن كل وسيط محكوم بأن يدخل في حالة من الارتكاس، وينقلب عكسيا عندما يصل إلى القمة، لقد حدث هذا مع الصحيفة قبل الراديو، ومع الراديو إلى حين قدوم التلفزيون، ومع التلفزيون إلى حين قدوم الإنترنت، ومع المسرح أيام هيمنة السينما. يحدث هذا الانقلاب لأنه قانون مصيري لكل وسيلة مهما كان تأثيرها. وحتى على مستوى أدوارها تحول الثقيف إلى تسطيح، والتسلية إلى ذوق هابط، وتنوير الرأي العام إلى تزييف، والواقع إلى فوق واقع. (اصطناع).

بقي كتاب "قوانين الميديا" مجهولا في الساحة العربية وغير مترجم، ما يؤكد أن الكثير من التصورات التي أعقبت فكرة القرية العالمية وامتداد الحواس والقيمة المركزية للوسيلة تبقى ناقصة ما لم تتوج بالتفاف حول هذا المؤلف.

سابعاً: عصر القلق التكنولوجي (المتخيل والواقعي)

اقترح Joshua Meyrowitz 1985 نظرية تتناول وسائل الإعلام الجماهيرية والتغيير الاجتماعي، وتدين بشيء ما لمارشال ماكلوهان (بمساعدة من إرفينغ غوفمان) Irving Goffman تتمثل أطروحته في أنّ الانتشار الواسع لوسائل الإعلام الإلكترونية قد غير التجربة الاجتماعية تغييراً جذرياً، بتحطيم الانفصال المادي بين المساحات الاجتماعية التي كانت سمة أساسية في أوقات سابقة (ماكويل، 2019، ص 186). وقد رأى ميرويتز أن التجربة الاجتماعية مقسمة إلى فئات على نحو تقليدي حسب الدور والوضع الاجتماعي، ومقسمة تقسيماً دقيقاً بين الحالات الخاصة (المتوارية) والعامة (المعلنة) (Meyrowitz, 2005, p221)

تميل تقنيات المتخيل، هذه الفئة التي يمكن أن ندرج فيها السينما والتلفزيون والإنترنت، وما إلى ذلك على نحو متزايد إلى تعزيز للتكنولوجيا، أي فكرة عالم تهيمن عليه التكنولوجيا لدرجة خلق كائنات تعيش تبعية لأداة تكنولوجية معينة، تحت سؤال مركب طرحه جوريمير ماشادو داسيلفا Juremir Machado da Silva مفاده: هل نفتني تكنولوجيا جديدة للمتخيل أم نفوس في مَخيلة التكنولوجيا؟ بصيغة أخرى هل العالم الافتراضي في طريقه للتحويل إلى واقع، أم أن الواقع هو الذي يسير نحو التلاشي؟ (Silva, 2008, p 43-47)

يمكن القول في خط تفكير ميشال مافيزولي M. Maffesoli وإدغار موران E. Morin ودون إنكار الرؤية النقدية لجان بودريار J. Baudrillard أن المتخيل التكنولوجي هو ثمرة متخيل اجتماعي يقوم بتوضيب ارتداد، تغذيه هو الآخر تكنولوجيا المتخيل المتاحة في وقت من الأوقات. إن منظور فكرة المتخيل محور أساسي في الحتمية التقنية، أي أن ما

يتراص في المخيال الاجتماعي حول التكنولوجيا هوننتاج ما خلفته تكنولوجيا المتخيل، حيث يتجه الأفراد إلى بناء ما تعمل الوسائط على تأثيثه في أذهانهم، ووصولاً إلى الإنترنت اليوم نجد أن المثال يتضح بشكل جلي جداً، في أطر الاستخدام الاجتماعي للوسائط الرقمية، وكيفيات نشوء متخيل اجتماعي تقني لفعل سابق هو تقنية متخيل الوسيط في حد ذاته

من هنا فإن تجارب الحياة اليومية في مجتمع يقوم فيه التلفاز بدور أساسي، تختلف في جوهرها عما هي عليه في مجتمعات تستخدم فيها وسائل إعلام مطبوعة فقط. تقوم نشرات الأخبار التلفزيونية بنقل المعلومات العالمية بصورة فورية لملايين الناس بالوسائل الإلكترونية، مما حوّل العالم المعاصر بحسب تعبير ماكلوهان إلى قرية كونية. ويعني ذلك أن الناس في جميع أرجاء العالم يشتركون في مشاهدة الأحداث العالمية وهي تتكشف أمامهم لحظة بلحظة، ولا تقتصر هذه المشاركة على أخبار الحروب والنزاعات الكبرى والثورات والكوارث التي تحدث في بقاع العالم، بل إنها تشمل أحياناً أحداثاً تفصيلية ثانوية قد لا تكون دلالاتها إلا لفئة واحدة أو مجتمع واحد (غيدنز، 2005، ص 511)

يرى بعض المستقبلين أن تطور التكنولوجيا سوف يؤدي حتماً إلى لحظة يسمونها "التفردية" انطلاقاً منها سيتجاوز الذكاء الاصطناعي القدرات البشرية في عالم كهذا، ستجد القدرات البشرية نفسها وقد أعادت رسمها تكنولوجيا النانو والعلوم وتكنولوجيات الدماغ. وراء هذا التجديد ل (مشروع الإنسان) توجد فكرة أن التكنولوجيا تستحق امتلاك وضع اعتباري معادل للطبيعة، وهي رؤية تلتقي مع نظريتها لدى العلماء الذين يرون أننا مقبلون على نهضة ثانية من شأنها أن تمهد الطريق لتعزيز الإنسان أو إيدائه أكثر، فكما حدث عد مرات منذ سنوات 1970 حول الثورة المعلوماتية وتطبيق التكنولوجيات البيولوجية والإنجاب الاصطناعي، يعلن بعض المبشرين اليوم عن موجة من الابتكارات والتطبيقات التي ستقلب قريباً رأساً على عقب حياتنا الخصوصية والمهنية وعاداتنا وعلاقاتنا الاجتماعية، بل وهويتنا الإنسانية (شنيدر فـ، 2019، ص 55)

III. نتائج الدراسة

- يعد طرح رباعية الميديا الذي أرساه ماكلوهان في كتابه "قوانين الميديا" إشكالية معقدة، كونها ليست نظرية جاهزة، بل مقارنة لقياس وتحليل تطور وسائل الإعلام وتناوبها في التأثير الاجتماعي على الأفراد، لذلك فهي تعد مبحثاً مغيباً لم يحظى بالعناية الكافية من قبل الباحثين العرب
- يبدو ماكلوهان للبعض قديماً، خاصة في بعض تفسيراته التي قابلتها معالجات مماثلة وبدائل تفسيرية كثيرة تعنى بمسألة التكنولوجيا، لكن ذلك لا يمنع من ضرورة بذل جهد أكبر لدراسة ما تأخر من أعماله التي لم تصل إلى البيئة العربية لحد الآن، عدا ما اقتصر على تدوير معلومات معروفة لدى الجميع.
- تعرضت أفكار ماكلوهان وإينيس إلى التسطيح المعرفي، والاختزال، التشويه المعرفي، فانزاحت مقاصده عن سياقاتها التفسيرية الأصلية. فكثير من الباحثين، توقفوا عند عبارة الوسيلة هي الرسالة وعند تصنيف الوسائل حسب درجة التأثير، ولم يزدوا عنها. إلى الكيفيات التي تعيد بها وسائل الإعلام تشكيل الإدراك والوعي الإنساني والمنظومة الثقافية.
- من أسباب صعوبة فهم ماكلوهان هو تركيزه على منهج تحليل (سمعي بصري شبكي)، لأن التفكير في أعماله كانت ممنهجة برؤية خطية تقليدية بعيدة عن التعقيد الذي استوجبه أعماله.
- لا يلقي ماكلوهان من خلال أعماله كل ثقله على تمثيل الوسيط للإنسان فقط، إنما يتجاوز ذلك قيام الوسائط بتدليك الحواس وإعادة تشكيل الوعي عبر الجسد كأداة والحاسة كقيمة دلالية.

- تم الترويج في كثير من الكتابات إلى صورة ماكلوهان المحتج، الذي يبرر لفشل الإنسان أمام الميديا، في حين كانت مقاصده تحذيرية من عودة القبلية والصراعات والهيمنة المتوحشة للقوى السياسية وهو ما ظهر فعلا بعد وفاته وترسخ واقعيا مع قدوم الإنترنت إلى اللحظة التي نعيشها اليوم.
- من أفكار ماكلوهان الرئيسية، هي دراسة قدرة وسائل الإعلام على ملازمة أجسادنا وشبكتنا الحسية، وأنسجتنا العصبية لأنها ترسم الخارطة الشعورية التي نحس بها العالم.
- ضعف فهم نظرية امتداد الحواس، في الدرس العربي، مقابل اتساع خارطتها لدى ماكلوهان، والسبب أن أنه تم تشويه جدلية (الامتداد-البتر) في ترسيمة العلاقة (إنسان-وسيط حاسة)
- إن أكثر ما ألفت ماكلوهان كان شفهيًا، وذلك راجع لطبيعة شخصيته، وتكوينه، فهو مفكر متحدث أكبر منه رجل كاتب، ومدلول ذلك أن المائل بين أيدينا قد يكون مجرد ملخصات لإرث أكبر بكثير.
- وقع تسطيح أيضا على مستوى فهم إشكالية مناخ وسائل الإعلام ضمن ثنائية (الساخن-البارد)، فبعض القراءات تحصرها في مجرد تصنيف، دون تحليل معمق للجوانب السيكلوجية والدينامية التي بمقتضاها يتم تبريد وتسخين الحواس من قبل الميديا.
- في نظر ماكلوهان العلاقة بين الإنسان والآلة (الميديا). تكافلية، وحسية أكثر شيء، تحتاج إلى فهم تجريبي يوضح عمق الخطاظة التي تعمل على جعل الوسيط يعيد تشكل الإنسان الحاس، فالحتمية من هذا المنظور بعيدة كل البعد عن الإكراه في الاستخدام، خاصة مع معطيات البيئة الرقمية اليوم، وإلا كيف نفسر عالما بلا تكنولوجيا لو سلمنا بأنها قدر مشؤوم وجب التخلص منه كما روج البعض لها.

IV. خاتمة:

رغم غنى الكتابات التي فككت فلسفة الحتمية التكنولوجية خاصة في البيئة الغربية، إلا أن القارئ العربي مزال يواجه غموضا كبيرا في فهم مقاصدها التي أرساها مارشال ماكلوهان وكذلك بعض معاصريه، إذ لم تصل مباحثنا لحد الساعة إلى تفكيك إرثه النظري حول التقنية، والإكراهات التي خلفتها على إنسان القرن العشرين وما بعده. عند التمعن في معطيات التطورات التكنولوجية المتسارعة التي وفرتها الإنترنت اليوم، نجد أن ما يسمى بتنبؤات القرية الكونية ومناخ الوسائل الباردة والساخنة، وكذلك أفق امتدادات الوسيط لحواس الإنسان، إشكاليات آخذة في التعقيد أكثر من الوضع الذي كانت عليه. تم حصر نظريات ماكلوهان حول الفضاء والزمن والتدليك وفلسفة الوسائط ضمن أفق تحليلي ضيق خاصة عربيا، وقد أشار الدكتور نصر الدين لعياضي إلى هذا المأزق المعرفي الذي أخر كثيرا الانفتاح على فكر ماكلوهان خاصة مؤلفاته التي بقيت غير مقروءة في الجامعات العربية وتحديدا في تخصص الإعلام والاتصال. وبالتالي يمكن القول أن مقاصد ماكلوهان خضعت للتشويه وضعف التأويل ومحدودية التفكيك، من خلال بعض الممارسات الأكاديمية التي تتوهم تشريح كتاباته والتحقيق فيها.

ختاما يجب الإشارة إلى أن الحتمية الماكلوهانية، هي إرث سابق أسس له أستاذه هارولد إينيس والذي يبقى بدوره مغيبا في البحث العربي، بالإضافة إلى أعمال مدرسة تورنتو التي تعج بالنقاش حول الميديا وماكلوهان، من ناحية أخرى فالإشكاليات التي طرحها ماكلوهان أوسع بكثير مما يتم تدويره لدى للباحثين والطلبة، والفكرة الأساسية التي يطرحها المقال هي الدعوة إلى إعادة التنقيب في ماكلوهان والإشكاليات التي طرحها، علما إن النقاشات المعقدة حوله تتجه إلى التركيز على ما قاله أكثر مما كتبه، استنادا إلى خاصيته الشفهية في التحليل. بسبب سوء الفهم تجاه ماكلوهان خسرتنا

أدوات عظيمة لفهم تأثير الوسائط الحديثة علينا عاطفيا، وجسديا وثقافيا، وتعاملنا مع الميديا كأنها مجرد قنوات نقل معلومات بدل اعتبارها طريقة لإعادة تشكيل الإنسان نفسه.

الإحالات والمراجع:

1. الحويك، ح. (2021). المسكوت عنه في الإعلام الغربي (الإعلام الفرنسي المكتوب نموذجا). (بيروت، لبنان: منتدى المعارف).
2. ديور، غ. (2000). مجتمع الاستعراض). أ. حسان (Trad.)، القاهرة: دار شقيقات للنشر والتوزيع.
3. رشتي، ج. أ. (1978). الأسس العلمية لنظريات الإعلام. القاهرة: دار الفكر العربي.
4. ريد، ت. ف. (2016). الحياة الرقمية (الثقافة والسلطة والتغير الاجتماعي في عصر الانترنت). ن. م. الله (Trad.)، الرياض، السعودية : العبيكان.
5. ريس، ج. ك. (2018). موجات جديدة في فلسفة التكنولوجيا (ش. جلال (Trad.)، القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.
6. شنيدر، ف. ج. (2019). الإنسان في مهبط التقنية (من الإنسان إلى ما بعده). (م. أسليم (Trad.)، فاس، المغرب : مطبعة بلال.
7. شوسميث، م. ب. (2017). نظريات ومناهج الإعلام). ع. ح. الحسن (Trad.)، القاهرة: دار النشر للجامعات.
8. طلال ناظم الزهيري. (05 ديسمبر 2024). الحتمية التكنولوجية وتأثيرها على الإعلام الجديد (دراسة استقرائية)، مجلة الإعلام والمجتمع، 08(02)، 154.
9. غرينفيلد، س. (2017). تغير العقل (كيف تترك التقنيات الرقمية بصماتها على أدمغتنا). (إ. ع. علي (Trad.)، الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
10. غيدنز، إ. (2005). علم الاجتماع). ف. الصياغ (Trad.)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
11. كافي، ن. ف. (2015). الرأي العام ونظريات الاتصال. عمان: دار الحامد.
12. لعياضي، ن. أ. (2021). التفكير مع ماركولاهان ضد الماركولاهانية. مجلة لباب، 16، (12).
13. مائلار، م. و. (2005). تاريخ نظريات الاتصال). ن. أ. رابح (Trad.)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
14. ماكويل، د. (2019). نظرية ماكويل للاتصال الجماهيري). (6. éd.) أ. ب. خالد (Trad.)، السعودية: منتدى أسبار الدولي.
15. مبيج، ب. (2011). الفكر الاتصالي من التأسيس إلى منعطف الألفية الثالثة). أ. القصوار (Trad.)، الدار البيضاء، المغرب : دار توبقال للنشر.
16. Dallen, T. J. (2025, 01 03). *France culture le medium est le message : redécouvrir les théories avant gardistes de Marchal McLuhan*. Récupéré sur radio france culture: <https://www.radiofrance.fr/franceculture/podcasts/un-monde-connecte/le-medium-est-le-message-redécouvrir-les-theories-avant-gardistes-de-marshall-mcluhan-3540602>
17. Euchner, J. (2016, 08 26). the Medium Is the message. *Research-Technology Management*, 59(05), 11. doi:<https://doi.org/10.1080/08956308.2016.1209068>
18. Gillmor, D. (2004). *We re The Media Journalism*. USA: O' reilly Media.
19. Guattari, F. (1992). *chaosmose, espace critique*. paris, france: Galilée.
20. lucien, s. (1988). *critique de la coomunication*. paris: seuil.
21. Macluhn, M. (1977). *pour comrendre lesmedias les prolengement technologiques de l' homme*. (J. Paré, Trad.) paris, france: seuil.
22. makcluhan, m. a. (1992). *laws of media (the new science)*. torento, canada: university of torento press.
23. McLuhan, M. (1967). *the Medium id the message*. torento, Canada: Bentham book.

24. Meyrowitz, J. (2005). *No Sense of Place, The Impact of Electronic Media on Social Behavior*. USA: Oxford University Press.
25. Postman, N. (1992). *technology. The surrender of culture to technology*. New York: Knopf Ink.
26. Silva, J. M. (2008). *les technologies de l'imaginaire. Media et culture a l'ère de la communication*. paris: : la table ronde.
27. Villanueva, D. (2018). *les Galaxies de la rhétorique (les puissants satellites du littéraire)*. madrid, espagne: Casa de Velazquez (ecole francaise) .
28. *wearecognitive The Medium Is The Message: What It Means For Us Today*. (2024, 07 23). Récupéré sur wearecognitive: <https://www.wearecognitive.com/blog/the-medium-is-the-message>